موقع الأيديولوجيا واليوتوبيا في البناء الإبستمولوجي للعلوم الإنسانية والإجتماعية

The Position of Ideology and Utopia in the Epistemological Framework of the Humanities and Social Sciences



هسة نعيمة [1*]، د. مداح رزقي [2]

[1] مخبر مجتمع تربية عمل، ، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية

جامعة مولود معمري تيزي وزو، 15000 تيزي وزو، الجزائر

naima.hassa@ummto.dz

[2] مخبر مجتمع تربية عمل، ، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية

جامعة مولود معمري تيزي وزو، 15000 تيزي وزو، الجزائر

rezki.meddah@ummto.dz

تاريخ الإرسال:2026/02/03 تاريخ القبول: 2026/03/03

****

ملخص:

تسعى هذه الورقة البحثية إلى تحليل حضور ثنائية الأيديولوجيا واليوتوبيا في العلوم الإنسانية والاجتماعية من خلال إستقصاء شروط إنتاج المعرفة في هذه العلوم وخصوصيتها القيمية والابستمولوجية التي تُشيد جسرا ترتحل عبره معتقدات الباحث وأفكاره إلى مختلف جوانب البحث ومحطاته. ومن هذه المعتقدات ما يتجسد في الأيديولوجيا التي تؤطر لما هو كائن، ومنها ما يتمثل في اليوتوبيا التي تستشرف ما ينبغي أن يكون. وتخلص هذه الدراسة إلى أن الأيديولوجيا واليوتوبيا ليستا عناصر عرضية، بل مكونات بنيوية في ابستمولوجيا العلوم الإنسانية والاجتماعية، وأن تحقيق الاستفادة القصوى من حضورهما وتفادي مخاطر انزلاقاتهما يقتضي إخضاعهما لنقد إبستيمي يختبر مصداقيتهما المعرفية، ونقد وظيفي يكشف عن أدوارهما الاجتماعية.

الكلمات المفتاحية: الأيديولوجيا، اليوتوبيا؛ البناء الإبستمولوجي؛ العلوم الإنسانية والاجتماعية.

Abstract:

This paper seeks to analyze the presence of the duality of ideology and utopia in the humanities and social sciences, by examining the conditions of knowledge production in these fields and their epistemological and value-based specificities. These specificities constitute a bridge through which the researcher's beliefs and ideas permeate the various dimensions and stages of inquiry. Among these beliefs, ideology provides a framework for what is, while utopia projects what ought to be. The study concludes that ideology and utopia are not incidental elements but rather structural components of the epistemological framework of the humanities and social sciences. To maximize the benefits of their presence and to avoid the risks of their distortions, they must be subjected to epistemic critique that tests their cognitive validity, and functional critique that reveals their social roles.

Key words: Ideology; Utopia; Epistemological Framework; Humanities and Social Sciences.

* المؤلف المراسل

مقدمة:

لقد ظلت إشكالية العلمية في العلوم الإنسانية والاجتماعية رهينة التوتر بين مطمح الموضوعية وسطوة الذاتية، وقد مثل القرن التاسع عشر بؤرة هذا التوتر، حيث ارتسمت فيه ملامح تمييز العلم، لا عن الفلسفة والرأي فحسب، بل عن العلم ذاته، فبات من الممكن تصنيف العلوم إلى درجات متباينة من الصرامة حسب ما يتوافر فيها من شروط العلمية وبنود الموضوعية، وهو ما كانت نتيجته أن إرتقت العلوم الطبيعية درجات هذا السلم هرولةً لما إمتازت به من دقة في المناهج وصدق في النتائج، في حين بقيت العلوم الإنسانية والإجتماعية متعثرةً في أُولى عتباته لِما إختصت به من ذاتية في المناهج ونسبية في النتائج.

شكّل هذا التعثّر والتخلف عن منطق العلوم الطبيعية أزمة في ميدان العلوم الإنسانية والإجتماعية جعلتها موضع شك ونقد ومساءلة ومقارنة. وتعدّدت الجهود الرامية للخروج من هذه الأزمة عبر تبني المناهج المعتمدة في العلوم الطبيعية بغية الوصول إلى نتائج مكافئة في الدقة، إلا أن المسألة كانت أكثر تعقيدا وتشابكا من أن تُحل بمجرد إستنساخ نماذج منهجية وافدة، ذلك أن طبيعة المواضيع التي تدرسها هذه العلوم وثيقة الصلة بمنظور الباحث فيها، بما يضمه من آراء ومصالح وتصورات، وهو ما سينعكس بدوره على عملية إنتاج المعرفة في العلوم الإنسانية والاجتماعية والطريقة التي تقدَّم بها هذه المعرفة في إطار بحثي منظم. وفي هذا السياق، فإن المنظور الذي يتبناه الباحث في هذه العلوم يمكن أن يتجه نحو فهم وتفسير ما هو كائن في إطار ما يسمى بالأيديولوجيا، أو التطلع واستشراف ما ينبغي أن يكون ضمن مدلول اليوتوبيا.

حظيت ثنائية الأيديولوجيا واليوتوبيا بنصيب وافر من النقاش الأكاديمي الذي لم يقتصر على تقصي الصلة بين شقيها فحسب، بل تجاوزه إلى بحث الرابطة التي تجمعها بالإنسان، المجتمع، السياسة، القيم، والعلوم التي تدرس مختلف هذه الجوانب؛ أي العلوم الإنسانية والاجتماعية، وهو ما تهدف هذه الورقة إلى فحصِه واستجلائِه. حيث تنطلق الدِّراسة من اعتبار الأيديولوجيا إطارًا فكريا مرجعيا مشروط تاريخيا واجتماعيا يساهم في تحديد زاوية الرؤية الإبستمولوجية للباحث وما يتمخض عن هذه الرؤية من إنتاج معرفي ومنهجي، خاصة في ميدان العلوم الإنسانية والاجتماعية التي يكون فيها التداخل الأيديولوجي-الإبستمولوجي أكثر بروزا نظرا لكون الإنسان في إطارها باحثًا ومبحوثًا. بينما تبرز اليوتوبيا كمحرك نقدي يحطم جمود الواقع المعرفي ويتجاوز ركوده عبر استشراف آفاق أوسع تستكمل ما في هذا الواقع من نقائص وتنقح ما به من مثالب. وبهذا، تغدو ثنائية الأيديولوجيا واليوتوبيا عنصرا بنيويا وخطا ناظما لعملية إنتاج المعرفة في العلوم الإنسانية والاجتماعية، بما تضمه هذه العملية من مراحل ومحطات. وتبرز في هذا الموضع إشكالية رئيسية مفادها: كيف يتحدد موقع الأيديولوجيا واليوتوبيا ضمن البناء الابستمولوجي للعلوم الإنسانية والاجتماعية؟ وما هي المبررات المعرفية والقيمية لهذا التموقع؟

للإجابة على هذه الإشكالية، إعتمدت الدراسة مقاربة تحليلية نقدية؛ تزاوج بين الفحص المفاهيمي للتصورات الأساسية التي بُنيت عليها الدراسة، والنقد المزدوج لثنائية الأيديولوجيا واليوتوبيا وفق خطة منهجية تنطلق أولا من ضبط الدلالات الاصطلاحية لكل من الأيديولوجيا، اليوتوبيا والعلوم الإنسانية والاجتماعية، ثم تنتقل إلى تحليل مظاهر حضور الأيديولوجيا واليوتوبيا داخل هذه العلوم، بما يتيح في النهاية الوقوف على مُبررات هذا الحضور وما يكتنزه من قيمة إبستمولوجية.

المبحث الأول

مدخل مفاهيمي: نحو ضبط دلالات الأيديولوجيا واليوتوبيا

تُعد "الأيديولوجيا" (Ideology) و"اليوتوبيا" (Utopia) من أبرز المفاهيم التي تناولتها الدراسات المعاصرة تعريفا وتأليفا. حيث حظي هذان المفهومان، على تباينهما الظاهر، بقدر متكافئ من الغموض والتعقيد الذي عدَّد زوايا النظر إليهما وكثّف ما تحملانه من دلالات، فأضحى من الصعب الوقوف عند تعريف كامل شامل لهما، خاصة في ظل ما حملته رؤى الدارسين من اِختلاف؛ إذ نظر إليهما البعض بعدسات الإيجابية والتفاؤل، وارتدى البعض الآخر عدسات السلبية والتشاؤم، فتلونت الأيديولوجيا واليوتوبيا بألوان هذه العدسات وتحددت بحدتها. وعلى الرغم من أن المفهومين المذكورين قد دُرسا بشكل مُنفصل لقرون طويلة، إلا أن الدراسات المعاصرة، منذ أعمال "كارل مانهايم" (Karl Mannheim) في عشرينات القرن الماضي، بدأت تجمع بينهما في إطار بحثي موحد، وتُبرِز ما بينهما من أوجه تواشج مفهومي ووظيفي. ومن ثم فإن مسعى هذا المدخل المفاهيمي هو الوقوف عند الدلالة الاصطلاحية لكل من الأيديولوجيا واليوتوبيا، واِستجلاء طبيعة العلاقة التي تربطهما.

المطلب الأول: مفهوم الأيديولوجيا

لطالما اِكتست مفردة "الأيديولوجيا" معنى سلبيا يربطها بالتحيز والتعصب والتحجر. والحقيقة أن هذا المعنى طارئ عليها وليس أصلا فيها. فالأصل أن "الأيديولوجيا" مصطلح تم نحته في ذروة عصر التنوير الأوروبي بواسطة المفكر الفرنسي "دستوت دي تراسي" (Destutt de Tracy) ليحدد معالم مشروع معرفي يختص بدراسة الأفكار والمعاني وخصائصها، وقوانينها، وأصولها، وعلاقتها بالعلامات التي تعبر عنها (مجمع اللغة العربية، 1983، صفحة 29). ويُلاحظ في هذه الدلالة الأصلية خلوها من الإيحاءات السلبية التي طالما التصقت بالمصطلح، وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على أن ما اِعتور الأيديولوجيا من تشوهات مفاهيمية إنما هو طارئ عليها وليس أصلا فيها، أي أنه علق بها في مراحل لاحقة من تطورها التاريخي، ولم يكن جزءا من إرهاصاتها الأولى.

يُعد القائد الفرنسي "نابليون بونابرت" (Napoleon Bonaparte) أول من قدَح في الأيديولوجيا وألبسها دلالة سلبية. فمن داخل البيئة الأنوارية الفرنسية التي ولد فيها المصطلح، وفي إطار الصراع العنيف الذي شهدته النزعة الجمهورية للأيديولوجيين، التي كان دي تراسي طرفا فيها، والنزعة السلطوية لبونابرت، تم اغتيال المعنى الأصلي الدال على الدراسة العلمية للأفكار، واستبداله بمعنى جديد يفيد الإهانة والتحقير، أين عُدّت الأيديولوجيا ضربًا من التفكير التجريدي المنفصل عن الواقع **(Kennedy , 1978, p. 75)**. وعليه، فإن اِنتقال الأيديولوجيا من الحقل الفلسفي إلى المعترك السياسي أحدث انقلابا جذريا في دلالتها، بدءا من الطعن في قيمتها العلمية والعملية، وصولا إلى إقحامها في عالم السياسة الذي تتضارب فيه المصالح والمطامح، ويطغى فيه التزييف والتضليل.

لقد كان الفيلسوف الألماني "كارل ماركس" (Karl Marx) من أوائل الذين تبنوا الفهم السلبي للأيديولوجيا بما اكتنزه من معاني الزيف والتضليل، فنزع عنها رِداء العلمية والموضوعية الذي كانت تتلفعه منذ زمن "دي تراسي"، وقدمها بإعتبارها جملة من الأفكار أو التمثلات التي تُفسَّر وفق شروط تاريخية لإنتاجها داخل مجتمع معين، وخاصة من خلال الصراع بين المصالح والتحالفات وعلاقات القوة. **(Comte-Sponville, 2001, p. 454)**. فعلى عكس الفهم البونابرتي الذي فصل الأيديولوجيا عن الواقع واتهمها بالغرق في التجريد الميتافيزيقي، نجد ماركس يربط بين المنظومة الأيديولوجية والسياق التاريخي والاجتماعي الذي تتشكل في إطاره هذه المنظومة، فالأيديولوجيا حسبه لا تظهر من فراغ، بل يتم إنتاجها داخل مجتمع معين وفي سياق زمني محدد، ضف إلى ذلك أنها تتشكل أساسا عبر صراعات قوى ومصالح الفئات الإجتماعية المختلفة، وهو ما يحول دون تحقيق الحياد داخل المنظومة الأيديولوجية.

علاوة على ما سبق، يربط ماركس بين البنية الفوقية، التي تمثل الأيديولوجيا أبرز لبناتها، والبنية التحتية ممثلة في القاعدة الاقتصادية للمجتمع، مؤكدا أن الأولى تتحدد عبر الثانية؛ فالاقتصاد بما يضمه من وسائل وعلاقات إنتاج هو ما يحدد الأفكار والقيم والتصورات التي ينبغي أن يعتمدها المجتمع، ولما كانت الأيديولوجيا مشروطة تاريخيا واجتماعيا ومحكومة بصراع القوى والمصالح، فإن الطبقة السائدة ماديا هي، بالضرورة، الطبقة السائدة فكريا؛ أي أن الطبقة التي تملك وسائل الإنتاج المادي تملك في الوقت نفسه حق الإشراف على وسائط الإنتاج الفكري، ويقابل هذا الحق واجب الخضوع الذي ينبغي أن تبديه الطبقات التي تفتقر إلى هذه الوسائط (ماركس وأنجلز، 1976، صفحة 56). وعليه، تمثل الأيديولوجيا انعكاسا مباشرا ومشروطا للبنية التحتية، إذ ترتبط الأفكار ارتباطا وثيقا بعلاقات الإنتاج وبالصراع الطبقي، ويعاد إنتاج الهيمنة عموديا عبر تشكيل رؤى الأفراد وقناعاتهم من قبل الطبقات السائدة، وهو ما سيفضي بالضرورة إلى وعي زائف يتم تصنيعه وتوجيهه بصورة سلطوية مفارقة، لا إرادية ومحايثة.

شكّل الفهم الماركسي للأيديولوجيا مرجعية هامة اِنطلَقت منها القراءات اللاحقة تأييدا وتفنيدا، ولعل أبرزها هي القراءة التي قدمها "كارل منهايم" (Karl Mannheim) الذي مثّل محطة هامة في المسار التطوري لمفهوم الأيديولوجيا من جهة أولى، وإرتباطه بمفهوم اليوتوبيا من جهة ثانية، والربط بين المفهومين وإنتاج المعرفة من جهة ثالثة. حيث نقل مفهوم الأيديولوجيا من دائرة الإتهام الماركسي إلى المجال السوسيولوجي المعرفي، فميز بين معنيين أساسيين للأيديولوجيا: المعنى الكلي؛ وهو المعنى السلبي الشائع الذي يشير إلى الموقف المتشكك تجاه الأفكار والتصورات التي يتقدم بها الخصم بإعتبارها تمويهات واعية تخفي الطبيعة الحقيقية لوضع يعارض مصلحة الخصم. والمعنى الجزئي، الذي يمثل إسهامه الرئيسي في هذا المجال، ويحيل إلى نمط التفكير السائد في عصر معين أو لدى جماعة/طبقة اجتماعية محددة (مانهايم، 1980، صفحة 129).

لم تعد الأيديولوجيا، مع مانهايم، مجرد منظومة من الأفكار الزائفة والتصورات المضللة، بل أفكارًا مرتبطة بمواقع اجتماعية محددة. وعلى عكس الرؤية الماركسية الاختزالية التي ربطت الأيديولوجيا بالطبقة المهيمنة، يطرح مانهايم رؤية أوسع تتيح الإنتاج الأيديولوجي لمختلف الطبقات الاجتماعية، وقد جاء هذا الطرح في إطار مشروع "سوسيولوجيا المعرفة" (Sociology of Knowledge) الذي يقوم على فرضية أساسية مفادها أنه لا يمكن فهم الأنماط الفكرية بعيدا عن منابعها الاجتماعية (مانهايم، صفحة 84). فالأفكار، لا تنشأ من فراغ، بل ترتبط بظروف اجتماعية وتاريخية محددة، ومن ثم فإن فهم السياق الاجتماعي الذي نشأت فيه تلك الأفكار، والطبقة أو الجماعة التي تبنتها يعد شرطا ضروريا لفهمها. ولما كان المجتمع الواحد متعدد الطبقات والفئات، كان من الطبيعي أيضا أن يكون متعدد الرؤى والأيديولوجيات، حيث تنتج كل طبقة رؤيتها الخاصة إلى العالم، سواء أرست هذه الرؤية إلى ما هو قائم أو تطلعت إلى ما ينبغي أن يكون.

عموما، يُعبر مفهوم الأيديولوجيا عن الأفق الذهني أو الرؤية التي يلقمها رجل عصر معين إلى العالم، وتؤصل قواعدها العامة لكل تقرير أو حكم يصدر في ذلك العصر (العروي، 2012، صفحة 10). وقد ساهمت الزئبقية المحايثة لسيرورة المصطلح في خضوعه إلى العديد من التحولات الدلالية، حيث عبر في بداياته مع دي تراسي عن مشروع معرفي لدراسة الأفكار في إطار عصر الأنوار، ثم أكسبته الماركسية معنى قدحيا يشار به إلى الخداع والتزييف والتشويه، قبل أن يعاد توظيفه مع منهايم في إطار سوسيو-معرفي، تحولت في كنفه الأيديولوجيا إلى ظاهرة اِجتماعية معرفية تعبر عن البنية الفكرية لجماعة إنسانية أو حقبة زمنية محددة. أما المفهوم الذي نعتمده في هذه الورقة البحثية، فينطلق من اعتبار الأيديولوجيا منظومة فكرية مرجعية مشروطة تاريخيا واجتماعيا، تلعب دورا أساسيا في تشكيل رؤية الفرد وما يتبعها من أحكام تقريرية.

المطلب الثاني: مفهوم اليوتوبيا

من الناحية التاريخية، يعتبر مصطلح "اليوتوبيا" أقدم ظهورا من مصطلح "الأيديولوجيا"؛ إذ يعود إلى بدايات القرن السادس عشر، حيث أورده الإنجليزي " توماس مور"(Thomas More) عنوانا لكتابه الصادر سنة 1516؛ ليقدم فيه "صورة متكاملة لعالم مثالي تختفي منه شرور عالم الواقع وتتحقق فيه أحلام الإنسانية بالسعادة والكفاية والعدل" (مور، 1987، صفحة 13)، واختار "يوتوبيا" اسمًا لجزيرته المثالية التي فصّل معالمها في ثنايا كتابه المذكور، وهو اسم مشتق أصلا من اللغة اليونانية، ويمكن أن يُكتب بطريقتين: الأولى (Eutopia) وتعني "مكانا لا وجود له"، أو "اللّامكان"، والثانية (Utopia) وتعني "المكان السعيد" (مانهايم، صفحة 50). ومن هنا فإن المصطلح، في بنيته اللغوية، يحمل دلالة مزدوجة، إذ يكشف عن الهوة السحيقة بين اليوتوبيا والواقع من ناحية، وبين الواقع والسعادة من ناحية أخرى. ما يوحي بأن المكان المثالي والسعيد الذي تصوغه اليوتوبيا، حسب ما توحي به الدلالة اللغوية للمصطلح، لا يمكن أن يوجد في أي مكان، وهو ما يضفي على المفهوم طابعا نقديا تهكميا في الآن ذاته.

أما من الناحية الإصطلاحية، فقد تعددت تعاريف اليوتوبيا وتباينت وجهات النظر حولها بين الإقرار والاعتراض، فرآها البعض ركيزة أساسية لكل تحول مجتمعي، ورأى فيها البعض الآخر وهما فارغا بمستقبل لا يمكن أن يتحقق. وحسب ما ذهب إليه المفكر الفرنسي "أندريه كونت سبونفيل" في معجمه الفلسفي، فإن اليوتوبيا تعبر عن "خيال سياسي، لا يراد به إدانة المجتمع القائم، بل اقتراح مجتمع آخر، مصمم مسبقا في تفاصيله، لا يبقى سوى تحقيقه" **(Comte-Sponville, p. 942)**. ومن ثم، يمكن القول إن الفكر اليوتوبي مهموم بالتفاصيل، فهو لا يؤمن بواقع تشوبه النقائص وتنخره الآفات، بل يتجه نحو تصميم مجتمع كامل، يتجاوز عيوب المجتمع الآني ويستكمل نقائصه بأقصى قدر ممكن من الإتقان. لذلك نجد الأدب اليوتوبي، يصور مجتمعات وممالك توصف بأنها "خيالية" لما تسرده دقائقها من كمال، مثل عدل الأنظمة السياسية، رَخاء الأنظمة الاقتصادية، ازدهار المؤسسات التعليمية، سمو الروح الأخلاقية، وغيرها من الأوصاف التي قلّما تتجسد أو تكتمل في الواقع.

إن أهم ما يميز "اليوتوبيا" هو طابعها النقدي الذي تنطلق منه في مهاجمة الواقع ودحض مساوئه. وينبغي الإشارة هنا إلى أنها لا تكتفي بالنقد لذاته، بل تتوسل به تخطيطًا لواقع مغاير أكثر كمالا، واقع تنحسر فيه مختلف أنواع البؤس والمعاناة. يقول "منهايم" واصفا الفكر اليوتوبي: «إنه فكر ديناميكي هجومي لا يركن إلى مجرد التأمل الساكن، إنه فكر مجبول على التخطيط للمستقبل وعلى النقد للحاضر، ونقده مرتبط بتخطيط، كما أن تخطيطه مرتبط بنقد» (مانهايم، صفحة 50). فاليوتوبيا، بهذا المعنى، تعبر عن وعي لا يركن للواقع كما هو الحال مع الأيديولوجيا، بل يحاول تجاوزه وتغييره، كما أنه لا يعبر عن رؤية هذا العالم بقدر ما يمثل رؤية لما يمكن أن يكون عليه هذا العالم إذا تم تنقيته مما يشوبه من شوائب ويعتوره من مثالب.

قدمت عالمة الاجتماع الإنجليزية "روث ليفيتاس" (Ruth Levitas) في ثنايا كتابها الرئيس "اليوتوبيا كمنهج" (Utopia as Method) قراءة مغايرة لليوتوبيا، حيث تجاوزت التعريفات الضيقة والمعاني القدحية التي ربطتها بالخيال والاستيهام، وعرفتها بأنها "الرغبة في طريقة أفضل للوجود أو العيش بطريقة أفضل"(Levitas, 2013, p. 104) ، وبهذا، أقامت ليفيتاس رؤيتها اليوتوبية، لا على مكان جغرافي مثالي كما فعل مور، أو على وعي نقدي تتبناه طبقة اجتماعية معينة كما فعل مانهايم، بل على الرغبة البشرية في تجاوز ما هو كائن بغية تحصيل نوعية أفضل لما ينبغي أن يكون. ونظرا لكون الرغبة قاسما إنسانيا مشتركا، فإن اليوتوبيا ستكون بالمثل قاسما تتشاركه مختلف الذوات الإنسانية، ذلك أن مطمح التغيير والسعي الدؤوب نحو تحسين الحياة قد لازم الإنسان عبر مختلف الأزمنة والأمكنة، وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على أن اليوتوبيا متأصلة في صميم الذات الإنسانية، فهي التي تحرك الإنسان نحو فهم الواقع واستشراف بدائل ممكنة له.

مجمل القول، أن اليوتوبيا، كما الأيديولوجيا، خضعت للعديد من التحولات الدلالية، حيث ارتبطت نشأتها بخيال مجتمع مثالي مع مور، ثم تحولت إلى مخيال اجتماعي يسعى إلى تجاوز الواقع مع منهايم، لتستحيل مع ليفيتاس نزعة إنسانية مشتركة يتم من خلالها نقد الواقع وإعادة تشكيله وفق ما يكتنزه من إمكانات راهنة ومستقبلية. أما فيما يتعلق بالتصور الذي تعتمده هذه الورقة البحثية لليوتوبيا؛ فيتأسس على اعتبار هذه الأخيرة بنية من التصورات النقدية، التي تتغذى من ديناميكية المخيال الإنساني لتحطيم جمود الواقع وتجاوز ركوده عبر استشراف آفاق أوسع تستكمل ما في هذا الواقع من نقائص.

المطلب الثالث: الأيديولوجيا واليوتوبيا بين الاتصال والانفصال

لقد تمايزت السياقات النظرية والتاريخية التي تطور فيها مفهومي "الأيديولوجيا" و"اليوتوبيا". حيث تعود الأخيرة إلى أدب النهضة في القرن السادس عشر، في حين تندرج أصول الأولى ضمن الإطار الفلسفي والمعرفي لعصر الأنوار في القرن الثامن عشر. ومن ثم، كان من المشروع أن تتم دراستهما بشكل منفصل، بإعتبار أن لكل منهما دلالته الخاصة ومساره التاريخي المستقل.

يُعتبر الفيلسوف وعالم الاجتماع المجري-الألماني "كارل منهايم" من أوائل المفكرين الذين تنبهوا لعمق العلاقة بين هذين المفهومين، وهو ما ناقش تفاصيله في كتابه العمدة "الأيديولوجيا واليوتوبيا" (Ideology and Utopia) سنة 1929، والذي يُعد من النصوص المؤسسة للربط بين المفهومين في إطار ما سمي بسوسيولوجيا المعرفة. حيث أكد "منهايم" في صفحات كتابه المذكور على اِستحالة فصل أي فكرة عن الموقع الاجتماعي لمنتجها، ولا يتعلق الأمر هنا بالطبقة الاِجتماعية التي ينتمي إليها صاحب الفكرة فحسب، بل يتعداه إلى مجموع المصالح، والميولات، والمكاسب والخسائر التي تكلفه إياها علاقته بالواقع أو الظاهرة المدروسة. وتمثل ثنائية الأيديولوجيا واليوتوبيا، بهذا المعنى، نموذجا مباشرا لمبادئ سوسيولوجيا المعرفة التي أرساها منهايم، حيث ذهب هذا الأخير إلى أن الفكر يمكن أن يكون أيديولوجيا أو يوتوبيا بحسب موقع أصحابه داخل المجتمع بما يضمنه هذا الموقع من مواقف اِجتماعية، سياسية، اِقتصادية، وما يدره عليهم من مغانم أو ما يجره إليهم مغارم (مانهايم، صفحة 51).

ويمكن أن نستخلص من هذا الفهم أن الأيديولوجيا واليوتوبيا، كونهما يعبران عن بنى فكرية ومنظومات قيمية، إنما يعكسان علاقة الفكر بالواقع الاِجتماعي، ومن ثم فإن التمييز بينهما متوقف على تحليل البنية الاِجتماعية التي وردت فيها الفكرة، والفئة الاِجتماعية التي تبنتها. ولما كان المعيار الاجتماعي معيارا نسبيا، فإن الفكرة الواحدة، استنادا لهذا المعيار، يمكن أن تكون أيديولوجية بالنسبة إلى فئة ويوتوبية بالنسبة إلى أخرى؛ ومثال ذلك أن فكرة "النظام الديمقراطي" في مجتمع ديمقراطي بالفعل يمكن أن تعتبر فكرة أيديولوجية، حيث أنها تسعى للحفاظ على النظام القائم أو تبريره، في حين أنها قد تتحول إلى فكرة يوتوبية في مجتمع يخضع لحكم ملكي أو ديكتاتوري مراده تجاوز وطأة السلطة الأوتوقراطية نحو نظام سياسي أكثر عدالة وحرية. ومن ثم فإن الخط الفاصل بين الأيديولوجيا واليوتوبيا ليس واضحا دائما، إلا أنه يبقى قابلا للتحديد من خلال اِستقراء الشروط التاريخية والاِجتماعية والسياسية التي تظهر فيها الفكرة المراد تصنيفها ضمن هذين النطاقين.

أعاد فيلسوف التأويل الفرنسي "بول ريكور" (Paul Ricœur) قراءة العلاقة بين الأيديولوجيا واليوتوبيا منطلقا من مفهوم "اللاتطابق الاجتماعي" (Social non-correspondence)، حيث افترض أن اِنتماء الأفراد إلى المجتمع ليس مشروطا بالاِنسجام التام، بل أيضا بالفجوات و الاِختلافات الموجودة بين هؤلاء الأفراد وواقعهم الاِجتماعي. وحسب ما ذهب إليه "ريكور" فإن لهذه الفجوات دور أساسي في تفعيل "المخيلة الاِجتماعية" التي تعمل في اِتجاهين متمايزين؛ اِتجاه البناء الذي يميل إلى تثبيت النظام القائم وتبريره، واِتجاه الهدم الذي يقوم بنقد النظام القائم ومحاولة تغييره (ريكور، 2002، صفحة 49). وهنا يبرز الارتباط الذي نظَّر له ريكور بين هذه الفجوات

(اللَّاتطابق) وبين ثنائية الأيديولوجيا واليوتوبيا؛ حيث تميل الأيديولوجيات لتثبيت الواقع وتبريره وفق ما تضطلع به الوظيفة البناءة للمخيلة الاجتماعية، في حين تميل الطوباويات إلى نقد الواقع واستكمال ما كشف عنه هذا النقد من نقائص.

يُستشف مما تقدم أن الأيديولوجيا واليوتوبيا، رغم ما يبدو بينهما من تنافر ظاهري، يرتبطان بعلاقة وثيقة تعكس التجربة الإنسانية في المجتمع؛ وهي تجربة لا تقتصر على النظر لما هو كائن، بل تتطلع أيضا لما ينبغي أن يكون. ضف إلى ذلك أن النقاش حول هذين المفهومين لم يقتصر على المستوى الأنطولوجي الذي يتقصى حضورهما في التجربة الواقعية، بل تعداه إلى المستوى الإبستمولوجي الذي ركز على حضورهما في المعرفة العلمية، خاصة منها التي تسعى إلى فهم الإنسان وإدراك كنهه فردا كان أم جماعة، في إطار ما عُرف بالعلوم الإنسانية والإجتماعية.

المبحث الثاني

العلوم الإنسانية والاجتماعية: المفهوم والأزمة

مثلت العلوم الإنسانية والاجتماعية، منذ تأسيسها في القرن التاسع عشر، حقلا خصبا للنقاش والإستشكال، ليس فقط حول الموضوعات التي تتناولها، بل أيضا حول ذاتها، نظرا لما تميزت به عن العلوم الطبيعية من خصائص جعلتها موضعا للمساءلة ومرتعا للنقد والتشكيك. وتقتضي الضرورة المنطقية والمنهجية هنا العروج على الدلالة الإصطلاحية لهذه العلوم والوقوف على جملة الخصائص التي شكلت قلب أزمتها قبل تحديد وتحليل العلاقة التي تربطها بكل من الأيديولوجيا واليوتوبيا والتي تكاد لا تنفصل عن هذه الأزمة.

المطلب الأول: مفهوم العلوم الإنسانية والاجتماعية

بداية، تجدر الإشارة إلى أن هناك اِختلافا واسعًا بين مجموع المفكرين والمنظرين حول ما إذا كانت "العلوم الإنسانية والاجتماعية" تشير إلى ميدان معرفي واحد أم إلى ميدانين متمايزين تشكل العلوم الإنسانية (Humanities) شقهما الأول وتمثل العلوم الاجتماعية (Social Sciences) شقهما الثاني. ويبرر هذا الإختلاف تعدد التعريفات والتصنيفات التي حظيت بها هذه العلوم في الأدبيات المعاصرة. وسنقتصر في هذا الموضع على عرض موجز للدلالات الإصطلاحية للعلوم الإنسانية والإجتماعية، سواء أشارت إلى مصطلح واحد أو مصطلحين مستقلين لكل منهما خصوصيته الدلالية. وهو ما سيتيح في النهاية الوقوف على الحجج الصريحة والضمنية التي تبرر مواقف المنظرين، سواء في اِتجاه المماهاة بين المصطلحين أو الفصل بينهما.

في كتابه "الموضوعية في العلوم الإنسانية"، يرادف "صلاح قنصوة" بين كل من العلوم الإنسانية والإجتماعية والثقافية والمعنوية، بإعتبار أن الإنسان مهما يكن من تنوع سلوكه وتفرده، فلا بد أن يكون منضويا في سياق اجتماعي ونسق ثقافي وقيمي لا ينفك عنه (قنصوة، 2007، صفحة 5). ومن ثم، فإن عين العبث أن ننكل بالصورة الكلية للإنسان، فنفصل بين دراسته قيميا واجتماعيا وثقافيا، فلا نظفر بذلك إلا بنتائج منقوصة أو مشوهة عنه. ولما كان الأمر كذلك، فإن الأصح هنا أن نوحد دراسة الإنسان ونوحد المصطلح المعبر عن هذه الدراسة. ونتعامل مع الإنسان، لا كلعبة "ليغو" قابلة للتفكيك وإعادة التركيب، بل ككائن تتداخل في تركيبه العديد من الأبعاد المعنوية والاجتماعية والثقافية، وما العلوم الإنسانية والاجتماعية إلا المعرفة الرامية إلى بحث علاقة الإنسان بهذه الأبعاد.

في المقابل، يبرز اتجاه آخر ينحو إلى التمييز بين العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، ويشمل هذا التمييز مناهج هذه العلوم وموضوعاتها وتصنيفاتها، وهو ما ينعكس بالضرورة على تعريفاتها. فوفقا لهذا الإتجاه، تعرف العلوم الإنسانية بوصفها ميدانا علميا يشمل فروع المعرفة التي لها صفة ثقافية في الإستخدام، مثل اللغة، والأدب، والتاريخ، والرياضيات، والفلسفة، وفي بعض التصنيفات تضاف الموسيقى والفنون الجميلة إلى هذه الفروع (بدر، 2001، صفحة 14). في حين ترتبط العلوم الإجتماعية بدراسة السلوك الإنساني في

جوانبه الإجتماعية والثقافية، ومن ثم فإنها تشمل تخصصات من قبيل: الأنثروبولوجيا الثقافية و الإجتماعية، علم النفس الاجتماعي، علم الاجتماع، علم السياسية، الإقتصاد، الجغرافيا الإجتماعية و الإقتصادية، فضلا عن مجالات التربية المتصلة بالإطار الإجتماعي للتعلم، و علاقة المدرسة بالنظام الاجتماعي (بدر، صفحة 69). ويتحدد منطق هذا التمييز في ربط العلوم الإنسانية بالجانب الثقافي والمعنوي للإنسان، مقابل ربط العلوم الاجتماعية بجانبه الاجتماعي العلائقي، باعتباره كائنا ذو انتماءات اجتماعية، مدنية، تعليمية، دينية، اقتصادية، سياسية...إلخ.

لعل أهم ما يمكن إستجلاؤه في ضوء هذه المقاربات المفاهيمية أن الموضوع المركزي الذي تلتقي حوله العلوم الإنسانية والاجتماعية، سواء أُخذت بوصفها ميدانا معرفيا واحدا أو ميدانين متمايزين، هو "الإنسان" فردا وجماعة، كيانا وقيمة، باحثا ومبحوثا. ويفضي هذا الطرح إلى إشكال هام فيما يتعلق بدراسة هذه العلوم؛ يتمثل في مسألة ذاتية الدراسات الإنسانية والاجتماعية وما تمخض عنها من إشكالات خلقت ما عُرف بأزمة الموضوعية في هذه العلوم. وسنحاول في المبحث التالي تشييد جسر من لبنات هذه الأزمة ينقلنا نحو فهم مسألة لاحقة لا تقل أهمية، وهي مسألة حضور الأيديولوجي واليوتوبي في الدراسات الإنسانية والاجتماعية.

المطلب الثاني: أزمة الموضوعية في الدراسات الإنسانية والاجتماعية

إن الدّارس لتاريخ العلم وتفرعاته، يدرك أن تسمية "العلوم الإنسانية والاجتماعية" إنما ظهرت لتفصل الميدان الإبستمولوجي للفروع المعرفية التي تضمها هذه العلوم عن ميدان "العلوم الطبيعية" الذي سبقه ظُهورًا وازدهارا. وكان من نتائج هذا الفصل، قيام العديد من المقارنات بين هذين الميدانين، سواء على مستوى الموضوع، أو المنهج، أو النتائج، لتتمخض عن هذه المقارنات أزمة محورية في الساحة المعرفية المعاصرة، قوامها التشكيك في موضوعية النتائج المتوصل إليها في العلوم الإنسانية والاجتماعية، في مقابل التزام نظيرتها الطبيعية بأبجديات الحياد المعرفي والصرامة المنهجية، ما أدى إلى ظهور العديد من التوجهات التي اهتمت بهذه الأزمة، فإنبرى بعضها لمحاولة حلها من خلال محاكاة العلوم الطبيعية منهجا ودقة، وذهب البعض الآخر إلى نفي أوصاف التأزم عنها، وإعتبار الذاتية خاصية متجذرة في طبيعتها لا ينبغي، بل لا يمكن، نفيها عنها.

في كتابها "مشكلة العلوم الإنسانية"، أشارت الباحثة "يمنى طريف الخولي" إلى جملة من العوامل التي رأت أنها أسهمت بوضوح في تشكل أزمة الموضوعية في العلوم الإنسانية والاجتماعية، واعتبرت العلاقة القائمة بين الباحث وموضوع بحثه أهم هذه العوامل. حيث ميزت بين العلوم الطبيعية، التي تفترض قدرا عاليا من الموضوعية بحكم الدور السلبي الذي يلعبه الباحث وانفصاله عن موضوع المعرفة، وثبات هذا الأخير بما يتيح الوصول إلى قوانين عامة ودقيقة، وبين العلوم الإنسانية التي يلعب فيها الباحث دورا إيجابيا من خلاله صلته الوطيدة بموضوع المعرفة، بإعتبار أن الباحث هو نفسه موضوع البحث (الخولي، 2012، صفحة 117). وإنطلاقا من هذا التصور، يتبين أن الطابع الذاتي الذي يسم ويصم العلوم الإنسانية والاجتماعية، نابع بالدرجة الأولى من العلاقة الخاصة بين الباحث وموضوع بحثه، إذ لا تدرس هذه العلوم موضوعا خارجيا مستقلا، بل تنشغل بالإنسان ككائن حي مُحمل بالقيم والمعتقدات والتصورات، متأثر بسياقاته الاجتماعية والثقافية ومؤثرا فيها.

في هذا الإطار، تتجه العديد من المقاربات إلى اعتبار التحيز في هذه العلوم أصلا لا عرضا، والذاتية فيها خاصية بنيوية لا خللا وعيبا؛ فمن الطبيعي أن تتسلل قيم الباحث وتصوراته إلى تحليلاته، خاصة بحكم وثاقة صلته بالموضوع الذي يحلله. غير أن هذا الطرح يقود بدوره إلى حلقة أخرى في سلسلة الإشكالات المرتبطة بطبيعة هذه التحيزات ومصدرها والدور الذي تضطلع به كل من الأيديولوجيا واليوتوبيا في إنتاجها أو ترسيخها داخل الدراسات الإنسانية والاجتماعية.

المبحث الثالث:

تجليات الأيديولوجيا واليوتوبيا في العلوم الإنسانية والاجتماعية

لقد شكلت "أزمة الموضوعية" في العلوم الإنسانية والاجتماعية حلقة وصل بين هذه العلوم وثنائية الأيديولوجيا واليوتوبيا. ولا يعني القول بالترابط هنا اختزال هذه العلاقة في منطق خطي تقليدي قائم على ثنائية السبب والنتيجة، بل الإشارة إلى ما تمتاز به من طابع إشكالي ومتشابك. وانطلاقا من إشكالية الموضوعية التي تمت مناقشتها في المبحث السابق، سنحاول الوقوف على دلالات حضور الأيديولوجيا واليوتوبيا في الدراسات الإنسانية والاجتماعية، وتفكيك طبيعة الرابط الذي يحكم هذا التشكيل المفهومي، مع محاولة تحديد كيفية اشتغاله نظريا ومنهجيا عبر رصد أبرز تمظهرات الأيديولوجيا واليوتوبيا في الدراسات الإنسانية والاجتماعية.

المطلب الأول: الأيديولوجيا في العلوم الإنسانية والاجتماعية:

كما سبقت الإشارة، فإن الطبيعة الديناميكية والحيوية للمجال الذي تشتغل العلوم الإنسانية والاجتماعية على دراسته تحول دون تحقيق الحياد الكامل والموضوعية الصارمة في هذه العلوم. ونتيجة لذلك، يصبح من الوارد أن تتداخل أفكار وتصورات ومصالح الباحث مع موضوع بحثه، سواء بوعي منه أو بغير وعي، ويبرر هذا التداخل حضور الأيديولوجيا داخل المعرفة التي تنتجها هذه العلوم، وإن كان هذا لا يعني أن كل ما ينعكس في البحث من أفكار وتصورات منسوبة إلى الباحث يعتبر بالضرورة "أيديولوجيا". إلا أن ما يمكن التأكيد عليه، هو أن الطبيعة المعرفية والمنهجية للعلوم الإنسانية والاجتماعية ذاتها تفترض تسرب الأيديولوجيا إلى بنيتها الابستمولوجية.

لقد وسع "منهايم" هذا الطرح لما أناط الأيديولوجيا بمهمة تفسير الظواهر النفسية والاجتماعية، انطلاقا من أطروحة مفادها أنه لا يمكن للباحث أن يبلغ الحقيقة بصورة مستقلة عن المعاني الاجتماعية والتاريخية (الخولي، صفحة 78). فالباحث في ميدان العلوم الإنسانية والاجتماعية لا ينطلق من فراغ ليشتغل في فراغ ويصل إلى فراغ، بل لا بد له أن ينطلق من أرضية فكرية مخصبة بالمعنى، سواء استُمد هذا المعنى من الانتماء التاريخي أو المجتمعي أو الثقافي. ومن ثم، فإن الأيديولوجيا، باعتبارها تجسيدا لهذا المعنى، تحد البحث في هذه العلوم من كل صوب، وترافقه عبر مختلف مراحله ومحطاته؛ بدءا من مرحلة اختيار موضوع الدراسة ومنهجها، وصولا إلى مرحلة تحليل النتائج وصياغة التوصيات وبناء النظريات. وبالتالي، يمكن القول أن الفروع المعرفية التي تنشأ في هذه الميادين العلمية، ناهيك عن النظريات الفلسفية، النفسية، الاجتماعية، الأنثروبولوجية التي تتأصل منها مشبعة بالقيم ومحملة بالأيديولوجيا.

إن القول بحضور الأيديولوجيا في صميم بنية العلوم الإنسانية والاجتماعية لا يعني حصر هذا الحضور في الإطار النظري للبحث العلمي فحسب، بل أن تأثيرها يتجاوز حدود هذا الإطار إلى فضاء العمل و آفاق الواقع. فالأفكار والمعتقدات التي تمثلها الأيديولوجيا لا توجه الباحث نحو الموضوع الذي يقوم بدراسته فحسب، بل أنها تساهم أيضا في تحديد الزاوية التي سيدرسه منها، العينة التي سيعتمدها في الدراسة، المفاهيم التي يستعملها، الفرضيات التي يصوغها، والمناهج التي سيتبناها في سبيل التحقق من هذه الفرضيات؛ فالمناهج في العلوم الإنسانية والاجتماعية ليست دائما محايدة، بل أنها غالبا ما تعكس الموقف السياسي والأيديولوجي و الموقع الاجتماعي والثقافي للباحث نفسه والبيئة التي يعيش في نطاقها وما إذا كان يتفق في الرأي مع النظام الذي يعيش في ظله أم لا (أبو النور، وآخرون، 1998، صفحة 83).

إذا لم يسلم المنهج، باعتباره الطريق الذي يسلكه الباحث للوصول إلى المعرفة، من التدخل الأيديولوجي، فإن ما يقود إليه هذا الطريق من نتائج ونظريات وقوانين لا يخلو بالمثل من الأيديولوجيا. ضف إلى ذلك أن نفاذ هذه الأخيرة إلى البحث العلمي في الدراسات الإنسانية

والاجتماعية لا يكون عبر الباحث وحده، بل أيضا عبر العينة موضع الدراسة؛ فتأثُّر المشاركين في البحث بأفكار ووجهات نظر الباحث، والإجابات التي يقدمها هؤلاء المشاركين بما تحمله من مشاعر وتصورات وحتى أخطاء مقصودة أو غير مقصودة كلها تندرج ضمن إطار الأيديولوجيا **(Mortabit, p. 191)**. ويمكن استجلاء ذلك عبر نموذج تطبيقي من الدراسات الاجتماعية ولتكن دراسة حول "أثر استخدام وسائل التواصل الاجتماعي على التحصيل الدراسي" مثلًا. إن الموقف الفكري المسبق الذي يتبناه الباحث يؤثر بشكل مباشر في تحديد العينة، وصياغة الأسئلة، وطريقة طرحها. فعلى سبيل المثال، إذا تبنى الباحث منظورا تكنوفوبيا، فإنه قد يميل إلى صياغة أسئلة ذات نبرة ترهيبية تركز على الجوانب السلبية وتتجاهل الإيجابية منها، مما قد يدفع المشاركين إلى الادلاء بإجابات تتماشى مع فرضياته. علاوة على ذلك، فإن المشاركين أنفسهم محملون بقيم ومشاعر وتصورات ذاتية تؤثر على استجاباتهم، وهو ما سيؤثر بدوره على النتائج المستخلصة، وما سيبنى على هذه النتائج من قوانين، وما سيؤسس على هذه القوانين من نظريات. وبهذا، يغدو البحث في ميدان العلوم الإنسانية والاجتماعية محكوما من بذاره إلى ثماره بالخلفية الأيديولوجية للباحث.

مما تقدم، يتبين أن هناك العديد من المبررات لحضور الأيديولوجيا في الدراسات الإنسانية والاجتماعية؛ بدءا من طبيعة هذه الدراسات وخصوصية موضوعاتها ومناهجها، مرورا بتوجهات الباحث وتصوراته، وصولا إلى النتائج المتوصل إليها. فأينما وُجد الإنسان وُجدت الأفكار والمعتقدات والقيم والانتماءات، وحيثما وجدت هذه الأخيرة وجدت الأيديولوجيا، وإن كان هذا الحكم يستلزم قدرا من التحفظ؛ إذ ليست كل الأفكار أو التحيزات تحتمل وسم الأيديولوجيا. إلا أنه أصبح جليا أن هذه الأخيرة تتموقع في قلب البناء الابستمولوجي للعلوم الإنسانية والاجتماعية، وسيوضح المبحث التالي ما إذا كانت لليوتوبيا مكانة مماثلة في هذا البناء أم لا.

المطلب الثاني: اليوتوبيا في العلوم الإنسانية والاجتماعية:

بمثل ما شكلت الطبيعة الحيوية للعلوم الإنسانية والاجتماعية منفذا لولوج الأيديولوجيا إلى البحث العلمي فيها، شكلت بالمثل منفذا تلج منه اليوتوبيا إليها. ذلك أن الإنسان، كونه الموضوع الذي تدور في فلكه هذه العلوم، لا يعيش الماضي والحاضر فحسب، بل يتطلع أيضا للمستقبل تفكيرا وتدبيرا، فهو، بلغة هيدغر(M. Heidegger) ، كائن ذو ثلاثة أبعاد، ويتجسد في اليوتوبيا بعده الثالث الذي يستشرف من خلاله مستقبله عبر نقد حاضره، والتفكير في بدائل ممكنة له.

على غرار الأيديولوجيا، حظيت اليوتوبيا بالعديد من التأويلات السلبية التي ربطتها بالوهم الفارغ والخيال الحالم، فتم اعتبارها تشويها للعلمية ونقيضا للواقعية. وتبعا لهذا الاعتقاد، كان أهم شرط نحو تحقيق الصرامة العلمية هو التمسك بالموضوعية والابتعاد عن أي تصورات وأفكار طوباوية. إلا أن هذا الفهم التقليدي لليوتوبيا بدأ يتزحزح بفعل الوعي الابستمولوجي والتاريخي بقيمة هذه الأخيرة ودورها في نشأة العلوم وتقدمها، وما جره ذلك من مغانم للبشرية جمعاء. وإذا ركزنا الحديث هنا عن العلوم الإنسانية والاجتماعية، فلنا أن نؤكد أنها تدين بشكل كبير في نشأتها وتطورها لليوتوبيا؛ فما هذه العلوم في النهاية إلا مجموعة منظمة من الفروع المعرفية والنظريات التي تم بناؤها استجابة لمشكلات عصور سالفة عبر تفعيل ملكة الخيال والتفكير خارج ما حددته تلك العصور من أطر معرفية. ويذهب السوسيولوجي البولندي "بيوتر جوك" (Piotr Żuk)، في هذا الصدد، إلى القول بصعوبة تجاهل الدور الذي لعبته مختلف اليوتوبيات التي ظهرت في القرون الماضية في أوروبا وحول العالم، خاصة وأن أصل النظريات الاجتماعية قد استند إلى محاولات لحل المشكلات العملية والأخلاقية والسياسية والاقتصادية التي واجهتها البشرية في مختلف مراحل التاريخ، وذلك عبر تجاوز الإطار المعرفي السائد نحو بناء واقع اجتماعي جديد. **(Żuk, 2020, p. 2)**

إضافة إلى مساهمة اليوتوبيا في تأسيس العلوم الإنسانية والاجتماعية بما تضمه من نظريات، كان لها دور لا يقل أهمية في تقدم هذه العلوم عبر تحفيز الخيال الاجتماعي. فمن دون أفكار شارل فوريه (Charles Fourier)، وروبرت أوين (Robert Owen)، أو

مؤلفات هنري دو سان سيمون (Saint-Simon)، لم يكن تقدم العلوم الاجتماعية ممكنًا، ومن دون نقدهم الحاد للواقع السياسي والاقتصادي والفكري الذي عاشوا فيه، لما أصبحت العديد من القضايا الاجتماعية (مثل الملكية الخاصة، حقوق المرأة، وعدم المساواة الاجتماعية) موضوع نقاش واسع في السنوات التالية **(Żuk, p. 2)**. ويمكن المجازفة بالقول إنه من دون اليوتوبيا لم يكن من الممكن تصور تطوير العديد من النظريات السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، ومن ثم إرساء أي أنظمة في هذه المجالات. وبالتالي، فإن الواقع الذي جسدته تلك النظريات، في وجوده وصموده، يدين في معظمه للخيال اليوتوبي. وليس وصفه بالخيال هنا تأكيدا على الاتهامات السلبية لليوتوبيا، بل نعتًا لما تبدو عليه استشرافاتها من بعد عن الواقع. فاليوتوبيا تقدم أفكارا تبدو غير منطقية في زمنها، إلا أن قابليتها للتحقيق تبقى، في الغالب، مسألة وقت واجتهاد، فأفكار مثل تجريم الرق، والمساواة بين الجنسين، وتعديل الجينوم، والذكاء الاصطناعي، كانت مجرد أفكار "خيالية" في وقت مضى، لكنها استحالت اليوم واقعا نشهد تمظهراته ونعايش تفاصيله.

علاوة على ما سبق، عرضت "ليفيتاس" اليوتوبيا باعتبارها أداة تحليل سوسيولوجي يقوم على استكشاف الإمكانات الكامنة في المجتمع وإعادة بنائه عبر ثلاث خطوات أساسية تلخصها في قولها:" أن تكون يوتوبيًّا هو جوهر علم الإجتماع؛ إذ يبدأ أولا بإخضاع المجتمع الراهن للنقد، وثانيا يتضمن تخيل مجتمعات بشرية لم توجد بعد، وثالثا يستلزم التفكير والعمل على منع تقييد الإمكانيات الاجتماعية في الحاضر والمستقبل" **(Levitas, p. 102)**. وعليه، تغدو اليوتوبيا عملية منهجية ثلاثية تقوم على نقد الواقع عبر استكشاف ما يتضمنه من مظالم وتناقضات، ثم تخيل بدائل ممكنة لعوالم تُرفع فيها المظالم وتزول التناقضات التي تم استكشافها في المرحلة الأولى، لنصل في النهاية إلى مرحلة لا تقل أهمية، وهي مرحلة فك الأغلال عن الإمكانات البشرية وتحريرها مما فُرض عليها من قيود اجتماعية، سياسية، فكرية، دينية ... إلخ. وبهذا تُمنح العلوم الاجتماعية، عبر تبنيها اليوتوبيا كمنهج، القدرة على تغيير بل وصناعة الواقع بدل الاكتفاء بوصفه فحسب.

إن الطابع التخيلي لليوتوبيا لا يلغي وظائفها الاجتماعية ولا إمكاناتها الواقعية في توجيه السياسات العامة والبحوث الأكاديمية. فقد أضحت اليوتوبيا، في السياق المعاصر، أداة عملية في بناء النظريات الاجتماعية والسياسية، تستخدم لفهم الواقع وتغييره عبر تصور بدائل ممكنة، لذلك برزت في السنوات الأخيرة دراسات عديدة نهت إلى ضرورة إعادة تصور اليوتوبيا كمساحة ديناميكية من الإمكانات بدلا من النظر إليه كمثل ثابتة **(Orman, 2025, p. 11)**. ويحفل الواقع السياسي المعاصر بالعديد من النماذج الملموسة التي تؤكد ديناميكية الفكر اليوتوبي، وأبرز هذه النماذج هي الحركات البيئية التي تنطلق من تصور مجتمع مستدام تقدر فيه الحياة غير البشرية كما تقدر البشرية، ويُنظر فيه إلى الأجيال اللاحقة باعتبارها مسؤولية أخلاقية ينبغي تولها بجدية. وقد انعكس هذا التصور على السياسات العامة، حيث سنت العديد من الاتفاقيات الدولية وتم تخصيص ميزانيات ضخمة لدعم هذه الرؤية.

في سياق ما تقدم، يمكن القول أن هناك ارتباطا وثيقا بين "ثنائية الأيديولوجيا واليوتوبيا" و"العلوم الإنسانية والاجتماعية"، وتتجسد أبعاد هذا الارتباط في تصورات الباحث لما هو كائن وتطلعاته لما يمكن أن يكون. وقد أكد "صلاح قنصوة" وثاقة هذه الصلة لما حصر المواضيع التي تناقشها العلوم الإنسانية والاجتماعية، نظريات كانت أم فرضيات أم قوانين، في ثلاث مستويات: "فإما أن تكون إنعكاسا أيديولوجيا لوضع إجتماعي يضرب في الماضي بجذوره ويحاول أن يثبت شرعية استمراره في الحاضر، أو أن تكون دعوة وتخطيطا ليوتوبيا ترسم برنامجا للمستقبل، أو أن تكون تقريرا أو تأييدا مُضمرا أو مُعلَنا لما هو واقع قائم في الحاضر"(قنصوة، ص28). لتصبح بذلك الأيديولوجيا واليوتوبيا عناصر إبستمولوجية في العلوم الإنسانية والاجتماعية، بعدما كان يُنظر إليها في النظريات التقليدية على أنها مجرد أحكام تحيزية وأوهام فارغة تهدد صرح العلمية. إلا أن ما بقي موضعا للشك والتساؤل، هو قيمة هذه العناصر

الابستمولوجية؛ فهل القول بحضور الأيديولوجيا واليوتوبيا في العلوم الإنسانية والاجتماعية يستوجب تطبيع هذا الحضور والتسليم بتداعياته، أم ينبغي الحد من هذا التداخل وتنقية المعرفة العلمية من مظاهر هذه الثنائية؟

المبحث الرابع:

الأيديولوجيا واليوتوبيا: آفاق القيمة وحدود النقد

المطلب الأول: قيمة الأيديولوجيا واليوتوبيا في العلوم الإنسانية والاجتماعية:

إن الدارس لموضوع "حضور الأيديولوجيا واليوتوبيا في العلوم الإنسانية والاجتماعية" يُدرك تنوع ما يثيره من إشكالات. فإلى جانب إشكالية موقع هذه الثنائية من البناء المعرفي لتلك العلوم وطبيعة العلاقة التي تربطهما، تبرز إشكالية أخرى لا تقل إلحاحا وأهمية؛ وتتمثل في "قيمة الأيديولوجيا واليوتوبيا في العلوم الإنسانية والاجتماعية". فما هو متنازع حوله حقا؛ ليس ما إذا كان شقا هذه الثنائية موجودان بالفعل في تلك الدراسات، بل ما إذا كان وجودهما يخدم هذه العلوم أم يعيقها؟

اِختلفت الإجابات عن هذا السؤال بين من يرى أن لهذه الثنائية دورا هامًّا في تحريك البحث وصياغة أسئلته وفرضياته للوصول إلى ما يترتب عنها من نتائج وحلول، ومن يرى أنها تشكل عائقا يحول بين هذه العلوم وبين بلوغ درجة الموضوعية التي أحرزتها نظيرتها الطبيعية، ومن ثم يكون الأنسب تخليص الإنسانيات والعلوم الاجتماعية من هذه الأبعاد الدخيلة.

يؤكد الدكتور "رفيق حبيب" على أن الأيديولوجيا لا يمكن أن تنفصل عن العلم سواء في شقه الطبيعي أو الاجتماعي. فهي متغلغلة في بنية العلم وبنية الفكر الذي يدرسه، ومن ثم فإن ما تردد من إشاعات حول موت الأيديولوجيا وتحرر العلوم منها بداية من النصف الثاني للقرن العشرين مشحون بالمغالطات التي ينبغي مجابتها، يقول: «الأيديولوجيا ليست خيارًا أو اِحتمالًا، بل هي حتمية تاريخية واجتماعية وطبيعية. ففي النهاية، "الأيديولوجيا" تعني ببساطة "الفكر". لا يوجد فرد أو مجتمع ولا نظام اجتماعي أو سياسي أو أكاديمي دون فكر. كل جماعة وكل فعل ينطوي على أيديولوجية أو فلسفة» **(Habib, 2006, p. 141)**

وتصديقا لهذا القول، تضحي الأيديولوجيا شرطا من شروط المعرفة وضرورة لازمة لإمكانها. وتستحيل كل محاولة لتخليص البحث السوسيولوجي من حضور الأيديولوجيا محاولة لإقصاء الذات المدركة، وتجاهلا لحقيقة أن أي ضرب من ضروب البحث ليس إلا انعكاسا للبيئة الاجتماعية والظروف السياسية والتحولات الاقتصادية السائدة في المجتمع **(Mortabit, p. 192).**

في المقابل، تذهب الدكتورة "يمنى طريف الخولي"، إلى أن الأيديولوجيا، كونها تعبر عن مجموعة الأفكار المبدئية العامة لكل جماعة مُعَيَّنة بشأن أصولها وأهدافها ومعاييرها ومصالحها الحضارية، تعتبر مُقَوِّما جوهريا للمجتمع أو الجماعة. إلا أنها تؤكد في الآن ذاته على أن تداخلها مع منطق العلم ومسار بحثه، من شأنه أن يسبب اعتوارا يحول بينه وبين تحقيقٍ أَدَقَّ وأفْضل لأهداف الوصف والتفسير في الإخبار في العلم (الخولي، صفحة 171). فالأيديولوجيا في الإطار الحضاري والمجتمعي يمكن أن تعتبر مقوما ضروريا، لكنه يتحول إلى مهدم في مجال العلم والمعرفة لما يمكن أن يتسبب به من تشويه ما يتطلبه تبليغ المعرفة والعلم من وصف وتفسير. ومن ثم وجب الحذر منها وتدبير تقنيات ملائمة لسد الثغرات التي يمكن أن تلج عبرها إلى بناء البحث العلمي.

برز صنف ثالث من الباحثين يحذر، لا من تداخل المعرفة الإنسانية والاجتماعية بالأيديولوجيا واليوتوبيا، بل من إمكانية تحول هذه المعرفة ذاتها إلى أيديولوجيا أو يوتوبيا. فالنظريات والقوانين والمعارف التي يتم الوصول إليها في هذه العلوم، إذا تشبعت بالأيديولوجيا، دون حذر أو مراجعة، يمكن أن تتحول ذاتها إلى أيديولوجيا. ويقدم الباحث "رايموند إي. ريس" (Raymond E. Ries) شرحا توضيحيا لهذه الفكرة من خلال استعارة اقتبسها من سفر إشعياء (The Book of Isaiah) تصف كيف يقطع الإنسان شجرة، فيُشعل بجزء من حطبها نارًا ليدفئ نفسه، وبجزء آخر لطهي طعامه، ثم ينحت بالجزء المتبقي تمثالًا يسجد له، ويسأله الخلاص، يقول:

«إن المعرفة العلمية للمجتمع، كخشب الشجرة، لها عدة فوائد: تُدوّن في الكتب، وتُنقل إلى الطلاب، وتُستخدم في حياة الأفراد وصانعي السياسات لتوضيح وتنظيم بدائل العمل، ويستخدمها الأفراد لفهم ما كانوا يفعلونه وما قد يفعلونه»، ويستدرك: «ولكن بعيدًا عن ذلك، ما الذي الجدوى من معرفة المجتمع؟ في ماذا سننحتها؟ هل نجعلها مُخلِّصًا؟ أم نحولها إلى أداة للدعاية؟ أم نضعها في موضع الإنسان نفسه؟ إنّ تحريم الصور المنحوتة لا يقتصر على رفض السجود لآلهة زائفة، أو خرق الوصية الأولى. بل هو في جوهره تحريم لمنح السلطة لصورة الشيء أو شبهه **(Ries, 1964, p. 242)**.

تعقيبا على هذا القول، فإن الخطر الذي ينبغي التصدي له هو احتمالية تحول المعرفة العلمية بالإنسان والمجتمع إلى صورة زائفة أو أداة أيديولوجية تفترض على الناس وكأنها الحقيقة المطلقة، بدل أن تظل مجرد وسيلة للفهم. لذلك ينبغي أن تبنى العلوم الاجتماعية على ضرورة كشف الأيديولوجيا ونقدها، لا تبنيها أو تبريرها من خلال منحها سلطة تخول لها التحكم في الإنسان تفكيرا وتدبيرا.

أما فيما يتعلق باليوتوبيا، فيكمن الخطر في تحول العلوم الإنسانية والاجتماعية إلى وهم بتخليص الإنسان من كافة أشكال المعاناة التي يفترضها وجوده، أي الإيمان بأن هذه العلوم قادرة على إيجاد حلول عملية للمشاكل التي يعاني منها الإنسان مثل البطالة، الفقر، الظلم، الجهل. فالأصل في الدراسات الإنسانية والاجتماعية أنها تنكب على دراسة الإنسان والمجتمع دراسة نظرية وصفية، لا تعد بتخليص الإنسان من المآزق التي يعانيها وجوده، وهو ما دعى "رايموند إي. ريس" للقول بأنه «إذا كان حلّ هذه المآزق سيأتي في مسار التاريخ البشري، فلا بد أن يأتي من جهة أخرى غير العلوم الاجتماعية» **(Ries, p. 240)**.

يكشف تعدد وجهات النظر حول قيمة الأيديولوجيا واليوتوبيا في العلوم الإنسانية والاجتماعية عن وجود أبعاد إيجابية وأخرى سلبية في كل منهما؛ أبعاد تسهم في إثراء المعرفة داخل هذه العلوم، وأخرى تعيقها أو تضعفها. كما أن في كل منهما عناصر أساسية ينبغي الحفاظ عليها والاستفادة منها، في مقابل عناصر غير ضرورية ينبغي استبعادها والحذر منها. ويقتضي التمييز بين هذه الأبعاد والعناصر امتلاك وعي نقدي والتسلح بنقد واعٍ يتيح رصدها والتعامل بموضوعية، ما أمكن ذلك، دون الانجرار وراء سلبياتها أو الوقوع في انزلاقاتها.

المطلب الثاني: النقد الوظيفي والإبستيمي للأيديولوجيا واليوتوبيا

إلى جانب المناقب التي يُدرها حضور الأيديولوجيا واليُوتوبيا في العُلوم الإنسانية والاِجتماعية مِن قبيل تحفيز البحث بطرح الأسئلة وصياغَة الفُروض ونقد الواقع واقتراح البدائل، نجده يجر العديد من المثالب التي من شأنها أن تعيق البحث العلمي عبر تشويه المعرفة وتضييق الفهم وزيادة التعصب والتحزب حول أفكار محددة. وتبرز الحاجة هنا إلى ضرورة الوعي بهذه القطبية الموزعة بين السلب والإيجاب، وتوجيه الجهود نحو تحييد الجوانب المعيقة منها، لا عن طريق التجاوز الكلي لثنائية الأيديولوجيا واليوتوبيا، خاصة وأنهما متجذران في صميم البنية المعرفية والاجتماعية ولا يمكن التخلص منهما بسهولة، وإنما من خلال تبني مقاربات نقدية توفر رؤية شاملة لهذه الثنائية من خلال رصد أبعادها وكيفية اشتغالها ضمن هذه الأبعاد.

من خلال هذا الطرح، يمكن تحديد مقاربتين نقديتين أساسيتين؛ تهتم الأولى، وهي المقاربة الوظيفية النقدية (The Functional Critique)، بدراسة الأبعاد الاجتماعية للمعتقدات والتصورات والرؤى من خلال التركيز على وظائفها، توزيعاتها الاجتماعية، ارتباطاتها الاحتمالية، أسباب وطرق انتشارها بغض النظر عن خصائصها المعرفية **(Morris, 2016, p. 5)**، فلا يعبأ هذا النقد بما إذا كانت تلك المعتقدات والأفكار صحيحة أم خاطئة، متسقة أم متناقضة، مبررة منطقيا أم واهية، بل يتعامل معها ككيانات قائمة بذاتها تؤدي وظائف اجتماعية بغض النظر عن صدقها. أما المقاربة الإبستيمية النقدية (The Epistemic Critique)، وهي المقاربة الثانية، فتتجه نحو كشف الأخطاء المعرفية التي تنشأ بفعل التدخلات الاجتماعية أو السياسية أو النفسية في العملية الإدراكية، بما

يسهم في تحديد هذه الأخطاء وفهمها وتجنبها، ويمهّد الطريق لاكتساب المعرفة وتبريرها على نحو صحيح (Morris, p. 8). فعلى عكس المقاربة الوظيفية التي تهمش السمات المعرفية للمعتقدات والأفكار المدروسة، تنظر المقاربة الابستيمية إلى هذه الأخيرة من زاوية معرفية، فتسعى لتقييم صحتها عبر التأكد من سلامة أصولها، باعتبار وجود العديد من الأفكار التي يسلم بها كحقائق بفعل تأثيرات مضللة خارجية كانت (الأعراف، الإعلام، الخطابات الدينية ...) أم داخلية (الرغبات الشخصية، الانحيازات اللاواعية...).

لتوضيح الآلية التي يمكن أن يعتمد عليها الباحثون في ميدان العلوم الإنسانية والاجتماعية لتطبيق هذا النقد على الأفكار المبحوثة، يمكن تنظيم العملية في خطوات منهجية تنطلق من الوعي بالبعد الأيديولوجي أو اليوتوبي الكامن في الفكرة المدروسة؛ ويعد خطوة مهمة في ضبط حدود الموضوع وأبعاده. بعد ذلك تأتي مرحلة التصنيف، حيث توضع الفكرة ضمن إطار الأيديولوجيا أو اليوتوبيا أو بينهما، كما هو الحال في فكرة العولمة مثلا؛ التي يمكن النظر إليها باعتبارها تمثل موقعا وسطا؛ فهي من جهة تبرر الهيمنة الجيوسياسية والاقتصادية للدول الرأسمالية، وتفتح المجال أمام توسع الدول الصناعية التقليدية، ومن جهة أخرى تحمل طموحا نحو تحقيق التكامل والرفاهية العامة للبشرية والوحدة العالمية في المستقبل المنظور (Petrov, 2017, p. 465). يلي ذلك إخضاع الفكرة لمشرح النقد المزدوج، حيث يكشف النقد الوظيفي عن الوظيفة الاجتماعية والقيمة العملية للفكرة عبر تحديد الدور الذي تؤديه في المجتمع، سواء كان إيجابيا أم سلبيا، بينما يركز النقد الإبستيمي على القيمة المعرفية للفكرة وما قد تحجبه من تضليلات أو مغالطات. وفي نهاية هذه المراحل، يصل الباحث إلى نتيجة مركبة تتيح له النظر إلى الفكرة من زاويتين متكاملتين: الدور الاجتماعي والقيمة المعرفية، مما يمكنه من استثمار إمكاناتها الإيجابية وتجنب آثارها التضليلية، سواء كانت هذه الفكرة أيديولوجية أم يوتوبية. هذا ما يحيلنا في النهاية إلى أن التعامل مع ثنائية الأيديولوجيا واليوتوبيا؛ لا ينبغي أن يقوم على محاولة تجاوزها أو إلغائها تماما، سواء من العلوم الإنسانية والاجتماعية أو غيرها من أنماط المعرفة، بل على إخضاعها لنقد متكامل الأبعاد: نقد وظيفي يكشف عن أدوارها الاجتماعية وآليات حضورها في البنية الجماعية، ونقد إبستيمي يختبر قيمتها المعرفية ويكشف عن حدودها وإمكاناتها في إنتاج معرفة قويمة. ويتيح الجمع بين هذين البعدين النقديين رؤية شاملة للكيفية التي تعمل بها كل من الأيديولوجيا واليوتوبيا اِجتماعيا، وللطريقة التي يؤثران بها معرفيا، وهو ما يفضي إلى فهم أعمق يمكننا من التمييز بين مظاهرها السلبية والتعامل معها بوعي نقدي، وبين إمكاناتها الإيجابية والاستفادة منها بوعي بناء.

خاتمة:

في ختام هذه الورقة البحثية، نخلص إلى أن الموقع الذي تتبوأه الأيديولوجيا واليوتوبيا في البناء الابستمولوجي للعلوم الإنسانية والاجتماعية إنما يتحدد بكونهما عنصرين بنويين في تحصيل وتأويل المعرفة. فالأيديولوجيا تمثل المنظومة الفكرية التي تعمل على تأطير اختيار موضوعات الدراسة وزوايا التحليل، في حين تسهم اليوتوبيا في توجيه البحث نحو آفاق استشرافية تقوم على تصور بدائل مستقبلية. ويستند هذا التموقع إلى مبررات معرفية وقيمية تتجلى في ارتباط هذه العلوم بسياقات تاريخية وثقافية واجتماعية. وتأسيسا على ما سبق، يمكن إجمال أهم النتائج التي خلصت إليها الدراسة فيما يلي:

- يمثل ارتباط العلوم الإنسانية والاجتماعية بالإنسان باعتباره كائنا محملا بالقيم والمصالح ومحاطا بأطر اجتماعية وتاريخية، يجعل ادعاء الحياد المطلق ضربا من الاستحالة.
- تلعب أهواء ومعتقدات ومصالح الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية دورا هاما في تشكيل مسار البحث وتأويل نتائجه واستشراف آفاقه، مما يكشف عن الحضور الأيديولوجي واليوتوبي في البناء الابستمولوجي لهذه العلوم أكثر من غيرها.

- تلعب الأيديولوجيا واليوتوبيا دورا محوريا في تأطير البحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية عبر مختلف مراحله ومحطاته، سواء تعلق الأمر بإختيار الموضوع، اختبار المناهج، أو تحليل النتائج، ما يوضح كونهما عنصران بنيويان في هذه العلوم لا عرضًا فيها.
- إن تفادي ما يمكن أن تفضي إليه الأيديولوجيا واليوتوبيا من مزالق في ميدان العلوم الإنسانية والاجتماعية مرهون بإخضاعهما لنقد إبستيمي يختبر سلامتهما المعرفية ونقد وظيفي يتقصى أدوارهما الاجتماعية.

في ضوء هذه النتائج، تقترح الدراسة جملة من التوصيات يمكن تلخيصها في النقاط التالية:

- ضرورة توعية الباحثين في ميدان العلوم الإنسانية والاجتماعية بوجود عناصر أيديولوجية وطوباوية تشكل جزءا لا يتجزأ من بنيتها الابستمولوجية، وتتداخل بشكل مباشر في إنتاج المعرفة.
- الاعتراف بالخصوصية القيمية للعلوم الإنسانية والاجتماعية وتكوين وعي نقدي بما تضمره هذه الخلفيات من حدود وإمكانات.
- تشجيع تطوير أدوات منهجية قادرة على رصد الأبعاد الأيديولوجية واليوتوبية في الممارسات الأكاديمية، وتحليل أثرها في تشكل النظريات الاجتماعية واعتماد القرارات السياسية.

قائمة المصادروالمراجع:

- أبو النور، أحمد أنور. حنفي، حسن. وجيه، حسن. العيسوي، عبد الرحمن. عبد المعطي، علي.,الكردي، محمد علي. عمر، مصطفى. بدر، ناجي .(1998) .*قضايا العلوم الإنسانية: إشكالية المنهج* .القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة.
- الخولي، يمنى طريف. (2012) .*مشكلة العلوم الإنسانية: تقنياتها و إمكانية حلها* .القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم و الثقافة.
- بدر، أحمد. (2001) .*مقدمة في الإنسانيات والعلوم الاجتماعية* .القاهرة: دار قباء.
- ريكور، بول .(2002) .*محاضرات في الأيديولوجيا واليوتوبيا* .(تر: فلاح،رحيم). بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة.
- قنصوة، صلاح .(2007) .*الموضوعية في العلوم الإنسانية: عرض نقدي لمناهج البحث* .بيروت: دار التنوير.
- مانهايم، كارل. (1980). *الأيديولوجيا واليوتوبيا: مقدمة في سوسيولوجيا المعرفة*. (تر: الدريني، محمد رجا عبد الرحمن) الكويت: شركة المكتبات الكويتية.
- مجمع اللغة العربية. (1983). *المعجم الفلسفي*. القاهرة: الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية.
- العروي, ع .(2012) .*مفهوم الإيديولوجيا* .المغرب: المركز الثقافي العربي.
- مور, ت .(1987) .*يوتوبيا* .القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- ماركس, ك & .,أنجلز, ف .(1976) .*الإيديولوجية الألمانية. (تر: ف، أيوب)*. دمشق: دار دمشق.
- Comte-Sponville, A. (2001). *Dictionnaire philosophique*. Paris: presses universitaires de France.
- Hwang , J. y. (2025). Cultural Heritage's Role in Shaping National Identity in Post-Colonial Societies. *World Journal of Advanced Research and Reviews, 26*(1), 3170–3181. doi:https://doi.org/10.30574/wjarr.2025.26.1.1430
- Habib, R. (2006). Modernizing vs. Westernizing the Social Sciences: The Case of Psychology. In A. Elmessiri (Ed.), *Epistemological Bias in the Physical & Social Sciences* (A. El-ezabi, S. Megahed, & A. S. Al-wahy, Trans.). London–Washington: International Institute of Islamic Thought.
- Karin Murris, Peter Shea, Walter Omar Kohan, Claire Cassidy, Susan M. Turner. (2022). *Gareth B. Matthews: The Child's Philosopher*. New York: Taylor & Francis Group.
- Kennedy , E. (1978). *Destutt De Tracy and the origins of Ideology*. Philadelphia: The American philosophical society.

- Levitas, R. (2013). *Utopia As Method.* UK: Palgrave macmillan.
- Morris, M. (2016). *Knowledge and Ideology; The Epistemology of Social and Political Critique*. United Kingdom: Cambridge University Press.
- Mortabit, M. (2024, June). The Sociological Research Dilemma between the Necessity of Objectivity and the Power of Ideology. *Journal of Social Sciences, Democratic Arabic Center for Strategic, Political & Economic Studies, 8*(32), 186-206.
- Ries, R. E. (1964). Social Science and Ideology. *Social Research, 31*(2), 234-243. Retrieved from https://www.jstor.org/stable/40969729
- Orman, T. F. (2025). Rethinking utopias through Hannah Arendt: Youth climate activism and the politics of Possibility. *Philosophy and Social Criticism*, 1–17. doi:DOI: 10.1177/01914537251317117
- Petrov, A. (2017, April). Globalization as a Social Utopia: Towards the Modern Sociological Criticism of a Mythological Discourse. *Journal of Literature and Art Studies, 7*('), 465-469.
- Żuk, P. (2020). On the Role of Utopia in Social Thought and Social Sciences. *History of European Ideas, 46*(6). doi:https://doi.org/10.1080/01916599.2020.1761650